إغواءُ الغرب

إغواء الغرب

أندريه مالرو

ترجمة : محمد سيف

«إن الذي يقتفي الآثارَ زمناً طويلا
يتشابهُ مع ظلهِ...»

مثل هندي من المالابار

ملحوظة

الرسائل التي تكون الجزء الأعظم من هذا الكتاب، كتبها م م. أد، فرنسي، في الخامسة والعشرين من العمر، لديه بعض المعرفة بأعمال الصين، والسيد لينج. و. ي.، صيني، في الثالثة والعشرين، المأخوذ بفضوله للثقافة الغربية، ذلك الفضول الذي عانى منه بعض من مواطنيه، والتي هي ثقافة كتبية فحسب. وقد تبادلا هذه الرسائل خلال رحلات قاما بها، الأول في الصين، والثاني في أوربا.

ولئن لم ير البعض في السيد لينج رمزاً شرق أقصوي. فإن رمزاً كهذا الذي يرونه ليس وارداً تَحقُّقَهُ. إنه صيني، كما تقدم، فإن له من الحساسية والفكر الصينيين قدراً لا يدفعه بدرجةٍ إلى إعدام الكتب الأوربية، ليس غير.

وهذه الرسائل تم انتقاؤها. وبنشرنا لها، فإننا نهدف إلى تحديد أبعاد كل من الحساسيتين، وأن نحفز الذين سيقرأونها على التفكير في طبيعة كل من مشاعرهم وعقولهم، التي تكاد تبدو واحدة.

❖

على أني ما لقيتكم، أيها المتوحشون الذين يظهرون على غير انتظار ويقدمون للبحارة الفاكهة التي لها شكل القرون على الصحاف البدائية، بينما تُطِلّ القباب من وراء النخيل، أيتها الكشوف... إن الرجال الذين يتصيدون الأشكال واحداً بعد الآخر ويوصدون عليها الكتب قد أعدوا كل ما يعتمل في عقلي. موكب من الكائنات والمشاهد الطبيعية يتراءى لمخيلتي ببطء، هذا المساء، في صمت الليل على البحر ودبيب الآلات المنتظم حتى يكاد يتحد معه... هدوء عظيم، بحر مصقول، ساطع، تتراقص فيه نجوم الأعماق... في أثر سير السفينة تختفي ظلال آخر العشائر، من رافعي جماجم ثيران الأوروش الضخمة -تُرى رايات هي أم أسلاب؟- الذين يخطط ظلهم المتعرج السهولَ. على مبعدة، جيوش آسيا الوسطى العاصفة، ببيارقها العالية المهيمنة على كل ما في طريقها، والمزخرَفَة بالوشوم العتيقة السوداء. في الزمن الغابر.

في عمق الحريم، المحظيات، على مقربة من كوة في الحائط، كانت إحداهن (وهي التي ستصبح وصيةً فيما بعد) تُحادث

قوارب بغير أشرعة ولا أعين. يدخلون الموانىء مع النهار.

الماء المزبد الداكن، يردّ أصداء الصيحات الأولى للبحارة بأوضح منها ؛ وبأعلى القوس المعتم، تعلو المدينة كلها بالحائط الذي يكللها والمزهر بالمعابد شيئاً فشيئا مع شروق الشمس ؛ على امتداد منظرها الجانبي الجاف تظهر غُرَر وزركشات الضوء. هاهم يبلغون الأرضَ، بعد الاصطدام ببعض الصخور. وهاهم يتجولون، سعداء وقلقين، وبالشوارع ذات الروائح التي تزعج أنوفهم، تتبعهم أصوات القطع الفضية التي يسعى لمبادلون إلى إثبات عدم زيفها برنّها بمطارق صغيرة. فجأة لمحوا امرأة، وانسدل الستار، فعكفوا على تذكر وجهها المريح وقدميها الصغيرتين، وسروالها الحريري والبقعة التي على صدريتها، ففي بطن غابة سوداء، ظل أشقر وزهرات معذبة...

هاهم يزورون بنوك الرهونات، وهي أبراج مثقبة بالفتحات، بجوار كل فتحة يوجد صحن مليء بالكبريت الذي يُلقي به الحراس على اللصوص عندما يحاولون الاستيلاء على النفائس المعهود بها للدولة.

من ثَمّ يعودون، يترجرجون على نحوٍ فظ بالمحَفّات الثقيلة، الآن تمتلىء حجورهم بأكوام مشترياتهم. هذا الثوب من الساتان الأبيض، كان فيما مضى ثوب الحداد لأميرة من الجُزُر، راهن أحدهم على تاريخ موتها بلؤلؤة حَمراءَ بين شفتيه. في عمق مجرى السلام الشامل، الكهول المحاطون بالشمس يقومون أمام المراهقين الوقورين بعمل الإشارات السحرية التي تحدد بناء المدن، البعيدة جداً، في تركستان أو التبت، وعند تجار الطيور،

من لينغ إلى أ. د

بل إن الجونك(★)، ذلك الحيوان الأليف، يجعلني أري فى القارب الشراعي الفرنسي مجموعة من المثلثات الهندسية. وكانت أوربا، أكثر ماتكون بالنسبة لي، هي المكان من الأرض الذي تحققت فيه المرأة.

❖

(★) الجونك: القارب الصيني

أي انطباع بالألم يطغى على مشاهد الحياة عندكم، في كل هذه الكائنات المسكينة التي أراها في شوارعكم، فلا تُدهشني حيويتكم بنفس القدر الذي تدهشني هذه الوجوه المتألمة التي لا أستطيع تجاهلها. لأن الألم يبدو وكأنه في صراعٍ وجهاً لوجهٍ مع كل واحدٍ فيكم ؛ ويالها من معاناة خاصة!

إن عقيدتكم، السالفة، التي نظمت عالمكم بدهاء، توقظُ فيّ خصومةً ما، فليس بمقدوري النظر بغير احترام للصور شبه البربرية التي تأبد، بسببها، عذاب هائل متناسق. ولكنني لا أستطيع أن أمعن خيالي بغير أن يضطرب تأملي في أن كل قوة الحب تتركز على جسدٍ مُعدَم. والمسيحية تبدو لي أنها المدرسة التي جاءت منها كل الأحاسيس التي تشكل بها الوعي بأن الفرد يتعيش معرفياً على ذاته. لقد ذرعتُ صالات متاحفكم، وجعلتني عبقريتكم أطفح ضيقاً. لقد وجدتُ قوةً متوحشةً تحيا في آلهتكم نفسها، وفي عظمتها المبقعة كصورها بالدموع والدم. فحتى الوجوه الهادئة التي أردت أن أحبها منها، كان قَدَرٌ مأساويٌ فوق أجفانها المسدلة: لأنكم اخترتم لها أن تكون ممثلةً للموت.

هناك أيضا رؤانا نحن للحياة، التي هي تهجّد حسي وهي تحاصرني بأكثر مما تُضيِّق عليَّ الرؤى الأخرى. ألا تشعر إذن قبل كل شيء أنه لابد لك أن تكون من جنسٍ متوج بتاجٍ ثقيل من القوة والألم، لكي تُفاخر باكتشاف جسد امرأة؟ إن عملاً فنياً حسياً من هذه الأعمال التي تحبونها، عملٌ من شأنه أن يثير القادرين على تذوقه بهذه الطريقة، وهذه الجاذبية أو القدرة هو عمل غير ناضج. وما يعطي القيمة لأنفس لفائفنا الحريرية، هو

إن التفوق بالنسبة لكم. هو تفوق رجل السلاح، وتفوق الألم، وبالنسبة لنا هو تفوق الكمال، الذي يأتي من شدة العاطفة التي يوقظها فينا شعورٌ ما. والكمال عندكم، هو التضحية. والإعجاب يأتي من فعلٍ أما عندنا فهذا الكمال وذلك الإعجاب هما فقط الوعي بالوجود على النمط الأكثر جمالاً. فأنتم من خلال الأشكاله القديمة لفنونكم التي أسميتموها بالجليلة، تعبرون عن الفعل وليس عن الحالة. هذه الحالة التي نعرف عنها أنها طوع أمر كل من يحوزها، وهي حالة الصفاء، حالة تفتت النفس على مشهدٍ من النور الأبدي، التي لم يحدث أن بحث الغربيون عنها أبداً، ولا عن تعبيرها، ولا حتى استعانوا بالقبس الخافت الذي يعرضها في بعض مواضع البحر المتوسط.

هذه الحالة هي التي جاء منها التعبير الوحيد الجليل للفن وللإنسان: وهي حالة السكِينة.

وكنتُ أودُّ، أيها السيد العزيز، أن أحدثك أكثر عن البشر ؛ ولكني لم أرَ بعدُ سوى الأعمال.

❖

سواء للانتقاء أو للزخرفة... ونحن لانريد أن نفعل بعقلنا، إلا ما يفعله المتفرج على لعبته الخاصة، لعبة التحوير المتوالي للكون. وأعلم آن ذلك يبدو لكم عبثاً. لذا فإن حركات الظل التي تكون كل ما يمكن لروحٍ نقية أن تسترقه بالعالم وما يعرضه العالم نفسه بصوت خفيض تبدو لي مع هذا أنها العَرَضُ الوحيد الذي يمكنه بغير خجل أن يمتع كائنا متحضرا.

ومن المؤكد، أنني، برغم الاهتمام الذي أصرفه، ليس بمقدوري أن ألمّ بعملٍ فني قدرَ إلمامكم. فحساسيتي تتعارض مع ما يحدُّه عقليَ. ولست أرى في ذلك ما يعني أن لديكم الرغبة في الواقعية، وإنما تعبير عن نقص في الحساسية فهل لايحظى المقبل من الحياة بنصيب من الواقعية لمجرد أنه مستقبل؟ والأهمية التي تضفونها على بعض الأقدار التي تعصف بكم، لأنكم لم تتفهموا أنها لم تعد بنفس الحدة، ألا تأتي من ذكاء غافل، وربما مُعَدّ بطريقة سيئة بواسطة عقيدة لاتألو جهداً في أن تزرع فيكم الاعتقادَ بتحققكم الشخصي؟ لقد صنعتم من حياتكم قُرباناً للقوة. فأنتم تخلطون بينكم وبين أفعالكم، وحتى في فكركم فأنتم ما زلتم بعدُ تفهمون بصعوبةٍ أن الوجودَ ليس مشروطاً بالفعل، وأن العالم يغيركم بأكثر مما تغيرونه...

كل شيء واضح فيما نسعى نحن إليه ونحن نريد، سواء في الفعل أو في الفكر، أن تكون لنا القدرةُ، بإيعازٍ من حساسيتنا واللحظة، على الاختيار بين المظاهر المتوالية للأشياء التي يعطيها الزمن. فهذه هي إمكانية التغيير الدائمة التي تَنشُر على الصين سَلطَنَتها الغامضة والمتعددة ؛ والتي تأتي منها تلك الرجفة الجليلة

الشعور عندنا عاطفة رزينة وهو كذلك وعي بأن الكائن لاينحصر في ذاته، وبأنه وعاء للوجود أكثر منه وسيلة للفعل. إن كلاً منا يُكرَّمُ موتاه، والموتى، هم أشبه برموزِ قوةٍ تغمرنا، وهذه القوة هي أحد أنماط الحياة، ولو أنه غير معروفٍ عنها سوى وجودها. لكن هذا الوجود هو ما نشعر به. فهي تهيمن علينا وتشكلنا بغير أن نستطيع الإمساك بها. إنها حالة بنا كما لو أننا بشر، وكما لو أنكم مهندسون، حتى في الألوهية...

إن الزمن هو ما تصنعونه به، ونحن مَن يصنعنا الزمن.

❖

انتصار العقول السالفة على أوهامها: فلم أجد أولاً سوى المتعة التي يجلبها الماء المثلج والأشكال التي توزعه في الطرقات التي كلّست الشمسُ أحجارَها العجوزَ فقد كان صوتها المليء بالعظمة القائمةَ محتجباً وراءَ أهازيج النوافير. تلك النوافير التي قرأتُ بالكتب فيما مضى عن سحرها، لقد طغى التوفز الشهواني لآلهتكم وصدفياتكم البرونزيةَ على المدينة المقدسة، وكل شارع كان يخفي في ظله الظل الحسي لبرنان.

لقد جعلتني بعض اللوحات الحائطية التي ترسم أرض قرطاج أقل إحباطا ربما وأقل افتتانا مما جعلتني عليه هذه المجموعة من الأروقة والمنقوشات الخشبية، والأعمدة المزهرة والحوانيت، ومما جعلني فيه هذا الفراغ الكبير الذي تظهر فيه خرائب الساحة على خلفية من البيوت الرومانتيكية التي تعلوها القباب المزينة. فمن قصر أدريان مروراً بمحلات العاديّات، التي بداخلها على طول التبَر، كمية من التحف المشوّهة إلى محلات الحلوى بمراياها المزينة التي تنعكس عليها رموز الإرادة الحجرية كل هذا يتحد لكي يجعل من هذه المدينة التي أخذتم منها شرائعكم صورةً للفوضي. والزمن اللاحق على هذه الأحجار قد تسلّى بأن أضفى على مجدها الوحشيّ الرونقَ البحرَ متوسطي. وفجأة، أمام هذه اللعبة الواضحة تماما لزمن غربيّ وفكه، رأيتُ ذكرى روما تختلطُ بذكرى الإسكندرية. العظمةُ مع الفظاظة. وتماثيل الآلهة في شمس الصباح مع الجماهير العنيقة البيضاء بالميادين الفسيحة. ومع ذلك فبالقرب من الأقواس التي تكسوها الطحالب شبه السوداء، والأعمدة المنسية في وسط الميادين الصغيرة غير المرصوفة حيث ينام الناس من العامة في الظل، وبالقرب من مسرح الكوليزيه

عظيماً إلا بقدر ما به من تضحية. إنه في ذاته بلا عبقرية. والرجال الذين قادهم نحوه قد نُذروا للموت، الذي أخذوا منه أو أعطوه. فهل للبربرية أن تكون أقل همجية من ذلك، لكي تكون ذات جبروت؟

إن هذه الخرائب لايجول في خاطري معها سوى نبلها المدنس والمشوش. وآهاً لسهول سمرقند الجدباء، التي يغمرها اسم بحضوره، ومئذنتان سوداوتان تنتصبان في سماء صافية تصرخان بأشد المشاعر مأسوية!

واأسفاه! إني أريد العثور هنا على القوة التي يحتاج إليها جنسي على نحو مؤلم، وأمام أجمل صورها، لم أستطع أن أخفي تقززي...

❖

جمع التحف المتواضعين. ولكنه كان يفضل عليها زيتونة الربة التي باعني غُصناً منها مقابل ثمن زهيد.

وبمَ أنه لايوجد جمال أبدي، فسوف يُواري الزمنُ قريباً بغير شك، موكبَ هذه الظلال التي كانت نقية وصارت فاتنة. ولكنه صحيح كذلك أن صفوة عقولكم يأتون إلى هنا بحثاً عن صورة نقية لأنفسهم. إنه مقدم النفوس الطيبة. المضيئة والمتلهفة لمعرفة ذاتها، فأي اعتبار أروع من هذا يمكن عطاؤه للموتى؟

ومهما يكن من أمر فقر هذا التناسق، والحدود الإنسانية لهذا النقاء، فمنذ بضع لحظات. وعند تذكري لأنني شاهدت، ضمن الأشكال التي رأيتها، بالمتحف المتواضع بالنسبة للمتاحف التي رأيتها عبر العالم، رأس شاب بعينين مفتوحتين شدتني إليها كأنها رمز للعبقرية الإغريقية، بإيعازها العميق: وهو قياس كل شيء بمدار وحدة حياة إنسانية ما. لقد تساءلتُ، لماذا لم تحفروا تحت هذا الوجه المجهول اسم أوديب؟ إن تاريخ أوديب هو تاريخ المعركة مع أبي الهول بكل ما لديكم من قدرات. إن الوحش، سواء كان تنيناً، أو أبا هول، أو ثوراً مُجَنّحاً، فهو واحد من مرايا الشرق ؛ ولكنه أيضا من هذا الجانب من الروح الذي حاول إخضاع اليونان، وقد عاود الظهور عبر القرون، في كل مرة طلب فيها البشر من الحياة أكثر مما يمكن أن يعطيهم الفكر. لقد مات في طيبة، وأُعيدَت ولادتُه بمصرَ والسودان، وعلى تخوم الهند حيث تغلب بدورِه على هذا الأوديب المحزن: الإسكندر...

حياة واحدة لي، أنا الآسيوي. وكل العبقرية الإغريقية تكمن في هذه الفكرة، وفي الحساسية القائمة عليها. وهنا يوجد فعلٌ

فبعد موت أبي الهول، كان على أوديبَ أن يحاربَ نفسه.

روما. عندما يعثر المرء على العلامات الهيلينية هنا، لايجد مقبرةً امبراطورية، بقدر ما يجد المكان الفريد الذي يعكس أكبر حيز من الأسف الذي استكان بهدوء إلى القوة فإذا كان للفرد أن يتعالى هنا أو يسيطر، فإن التلال السبعة تشير له لكي ينحني فهل يمكن فهم حضارتكم وإيقاعها بغير الاستماع إلى الحوار بين الصوت الشره والصوت المتعجرف الصاعدين من هاتين الأرضين المليئتين بالرخام المهشم؟

لقد سَرّني أن أرى في المدينة بعضَ الحراس الرسميين المرتدين للزي الروماني التقليدي القديم، الذين دَرّبوا كل ذكائهم على التصويب ببلطة قاطعة على حُزمَةٍ من السيقان، وعددا من الكنائس التي جُلِبَت. أعمدتها الداخلية من المعابد الأثرية. ولقد سمعتُ بها صوتين مسيحيين: أحدهما يغني المجد لله، والآخر يسائل بغير أن يسمع وهذا الأخير لم يهتم أبدا بأن يحيط الإنسانَ وعياً بأيٍّ من هذه القوى، التي أكدت القطيعة بينه وبين العالم -من الجبروت الى الشهوة- ؛ وبتردداته، وحسراته، في المعركة الداخلية التي تؤلف قوامَ حياته، بل نسب إليه كل الأهمية والقدرة الفائقة: ووَحّدَه بالله. إن الشرقيّ اللامسؤول يستمد قوته من التعالي على صراعٍ لايراه مصيرياً. والمسيحيّ لا يستطيع أبداً أن ينفصل ؛ فالله وهو مرتبطان الواحد بالآخر من الآن وإلى الأبد، وليس العالم سوى الهباء الذي يزوق صراعهما. وفي العذاب المثقف للإغريق، مع القلق الخالص الذي لأقُوهُ في محاولة أن يعطوا للحياةِ طابعاً إنسانياً. ينطوي عذابكم، وتَخَبُّطكم الأعمى، لأن

منه إليه
في إجابةٍ على خطابٍ
غيرِ ذي أهميةٍ

أقتفي أثر صورتي، التي كنت قد رفضتها. فكيف أجد نفسي بغير أن أنظر إليك؟ وحين أراك تضيع بعض الشيء في الحبّ يغمرني الأسف لعدم قدرتي على اللحاق بك ؛ فمن أجل أن يضيع المرء لابد له من الإيمان بذاته.

يخيل لي أنكم تعطون لهذا الذي لايعدو أن يكون اتفاقا شبه عام المسمى بالواقع أهمية مفرطة، إن العالم قد خُلِقَ بمقتضى هذا الاتفاق، ولذا فأنتم تتصالحون معه لأن إنكاره يتطلب ممن يحاول ذلك شجاعة فائقة، تكلفكم الكثير والعاطفة تبدو في نظامكم الاجتماعي، كما لو أنها صدْعٌ مستقيم فأيّاً ما كان جنسنا، نحن نعلم كبشر، أننا نعيش فَي عوالم مُعَدّة سلفاً، لكن نوعاً من السرور الوحشي، يغزونا جميعا عند نداء حاجاتنا الأساسية يُرينا ما بها من استبداد. والإنسان العاطفيّ في خلاف مع العالم الذي أدركه، كما لو أن هذا العالم المفاجيء له والذي توقّعه لن تغير فيه العاطفة شيئا والإنسان الذي يرغب في الحب، يرغب في الهرب، وهذا نادر ؛ لكن المرأة أو الرجل الذي يرغب في أن يكون هو موضوعا للحب، ويرغب في أن يضيع كيانٌ آخر فيه، يبدو لى أن انصياعه لهذا مُطيع لضرورة قاهرة للغاية بما يجعلني أصل إلى القناعة الآتية:

إن ما يتمركز في الإنسان الأوربي، مهيمناً على التوجهات العظمى لحياته، هو عبث في جوهره فهل لا تعتقد بهذا؟

لقد توقفتُ بعض الوقت عن الكتابة. وهذا السؤال يُلحّ عليّ. لأي شيء إذن تريدون التماهي فيما تسمونه روح المرأة؟ فبمَ أنهن كن مسيحيات قد ضحين بعقيدتهن ؛ وصرن بعد ذلك يضحين

العاشرة؟ لذا فإن العاطفةَ التي يمكن لامرأة أن تلهمها لرجل، يعبر عنها كتابنا دائما باعتبارها خارج الزواج، بما أنها ناتجة عن عملية سحرية. وسواء بالنسبة لمن يكابد من الإذعان لها أو لمن يناضلها فهي دائما مسالمة. وهي أشبه ما تكون بالمرض القاتل، حاوية، ولا أمل فيها. فلا التملك، ولا يقين المعاشرة بقادرين على إضعافها ؛ فليس في مقدور البشر أن يتفادوا أقدار الجروح الأبدية...

وأدوار المحظية والعاهرة تتطلب أحيانا ذكاء، وتتطلب دائماً المهارة والعناية ؛ لكن أية سمة فردية هنا تعد مهارة خاصة. إن بيوت اللهو المترفة التي نراها في أوربا تدهشنا دائما: فالقليل من الأماكن التي احتفظت بها أوربا البربرية تجعلنا من ناحيتها حساسين لهذه النقطة: فبين كل الأفكار التي يحملها الإنسان هل توجد فكرة قادرة على فضح حساسيته السرية غير فكرة المتعة؟ إنني لا أجهل أنه سيكون شيئا يدعو للسخرية محاكمة أوربا على هذه الأشياء ؛ ومع ذلك فإن الاهتمام بالنساء والرغبة فيهن، فقط لكونهن جميلات، دليل صارخ على الفظاظة! فليس بالصين عاهرة على درجة من القيمة ليست متعلمة وقادرة على أن تزين اللذات التي تمنحها للرجل بتلك التي يتطلبها العقل. إنها تقرأ وتقرأ دائما ؛ لكن هناك الجيد والرديء من الكتب، كما أن هناك الجميل والحقير من الزخرفات. ولابد للعاهرة أن تكون متعلمة لكي يكون لها قيمة، وحاذقة لكي تحتفظ بهذه القيمة. وليس فيهن مَن ليست لها سمة خاصة إلى جانب هذه الثقافة وهذا الحذق، فهن تتشابهن من حيث الأنواع مع العاملين بالفن. إن الفضائلَ التي ننشدها في النساء هي نفسها التي تسرنا لدى رجل ؛ والعاهرات اللاتي يشتد عليهنَ الطلب هن اللاتي تنحنين دائما أمام الغلمان الصغار واللاتي

والسذاجة، ذلك لأنهم يجهلون التأثيراتِ الواضحةَ التي عرفتم كيف تستخلصونها من الخيال.

إن الصينيين الشباب الذين يقرأون كتبكم تصيبهم الدهشة أولاً للاهتمام الذي تظهرونه لفهم أحاسيس النساء. وفضلا عن أن جهداً كهذا يظل في رأيهم، أهلاً للازدراء، فهو بالضرورة جَهدٌ يُفضي إلى هباء. فالرجل والمرأة ينحدران من نوعين مختلفين. كيف تفكر أنتَ في المؤلف الذي يصف لكَ أحاسيسَ طائرٍ؟ إنه يقدم لك أحاسيسه هو مشوهة. وهذا هو ما ما نفكر به بالنسبة للكاتب الذي يحدثنا عن أحاسيس المرأة. رغم ذلك، ومن هذه المحاولة تأتي قوة الأوربيين. يبدو أنكم تأخذون بيد المرأة لتضعونها على أكتافكم ؛ فهي تهمكم لأنها تأسركم، ولكنكم أنتم الذين تمكنونها من أسركم. وفي إطار رغبتكم في أن تفهموها، فإنكم تحققون هويتكم فيها.

وتَحضُرُني بعض أقوالِ لصديقك (ج. أ) وكان عائداً من سوريا. وتحدثنا عن النساء، حيث أنني منذ عدة أيام، أفكر فيهن باستمرار قال لي «لقد فاجَأتَني الاستثارات التي أيقظتها داخلي، في أول الأقطار الإسلامية التي زرتها. المحجبات اللاتي رأيتهن يسرن متمهلات في الشارع، يتبعهن خدمهن ؛ كان ظلهن يتقدمهن بطيئاً على سورٍ عالٍ شرعَ في السماء خطاً منحنياً من الشرفات الحمراء. ودفعني الفضول لتحليل الاضطراب الحسي الذي سببته داخلي الطريقة التي وضعن بها خُمُرهن على وجوههن. وأعتقد أنني تمكنت من تلطيف حدة الأحاسيس التي أسبغتها عليّ كلُّ واحدةٍ منهن. لكن هذه الأحاسيس التي خبرتها، قد

من أ .د.إلى لينغ

لمآسي التاريخ والفن، يكمن في التلاعب اليومي على نحو غائر بالأعداد التي لا تُحصَى من حالات الوعي المعتم. وبما أن الروح الغربية هنا: في تخيلات الحلم هذه... فإن هذه الألعاب التي يبدو معها العبث فظيعا إذا لم يكن مشتركا، تترك في أنفسنا آثارا لها تقريباً قوةُ الذكريات. إن المقل يُعطي فكرةً الأمة: لكن الذي يُحدثُ وحدتها الشعورية هو الهاجس المشترك. فإخوتنا هم هؤلاء الذين عاشوا طفولتهم على إيقاع أشعار الفروسية والأساطير التي هيمنت على طفولتنا. لقد أحسسنا جميعا برودة وغمام صباح أوسترليتز. وانفعال ذلك المساء الطويل المؤلم حيث حمل البعض، للمرة الأولى، أرغفةً السرخس في فرساي المثقلة بالصمت. وصور كهذه لابد لها من بشر بيض لكي تعطيهم ذاتاً قومية.

إن القراءة، والعَروض، عند الناس الذين بلا ثقافة، هي مصادر الحيوات المتخيلة. ولا يوجد شيء أقل من أن يحظى بالاهتمام سوى الرغبة في المعرفة. والغرب، الذي يجهل الأفيون، عرف الصحافة. وصراع الطموحات المنتصرة أو المقهورة يوماً ما: هو صحيفة. فأي عالم لم يؤججه هذا الصراع ولم يُزِغ عينيه خلف حدقاتها! هذا هو ما يجعل تحققات البشر من جنسنا تحققات مسورة. لاشيء يدوي فيها بالصوت الذي ننتظر قدومه. إنك تظن، ياصديقي العزيز، بأنه لا يوجد لدينا الإنسان، الذي لم تقهره أوربا. وذلك ضرب من الاستسهال...

هل أنت ممن يتذوّق الهزل؟ اذهب إلى السينما، إن عَرْضها المحاط بالصمت وإيقاعها السريع لقادران بشكل خاص على التأثير في خيالنا. انظر إلى الناس الخارجين بعد انتهاء العَرض:

بانزعاج حتى عندما نشارك في تحديد ملامحها. إن كل كتاب، وكل محادثة قد تصدر عنا تتجدد مع كل عاطفة جديدة، فهي تتبدل مع أحدث متعنا ومع آخر أوجاعنا. ومع هذا فإنها من القوة بمكان حيث تُخْلفُ فينا الذكريات الخفية التي تنمو حتى تشكل أحد أهم عناصرَ حياتنا: فالمعرفة التي لدينا من أنفسنا ؛ محتجبة ومتعارضة مع كل منطق، كل سعيٍ وراءها، حتى ولو كان سعي العقل نفسه، ما إن يمسك بها حتى تختفي فلا شيء محدد، حتى ذلك الذي يسمح لنا نحن بأن نتحدد. إنه نوع من القوة المستترة...

إن الأمر يبدو كما لو أننا فقط قد أخطأتنا الفرصة لننجز في العالم الواقعي أحلامنا، ونحن نحتفظ بالانطباعات المبهمة، لا لكي ننجزها، ولكن لتصور أننا كنا قادرين على فعل ذلك، فنحن نحس بتلك المقدرة في أنفسنا بنفس الطريقة التي يشعر بها الرياضيّ، الذي لا يفكر في قوته، لأنه يعرفها. وكالممثلين البائسين الذين لايريدون التخلي عن أدوار البطولة. فنحن بالنسبة لأنفسنا كائنات راقدة داخلنا، اختلطت مع الإمكانيات الساذجة لأفعالنا، وأحلامنا.

وبالنسبة لهذه المعرفة، المتزودة عبر الوعود والآمال في حياة إنسانية، بكل غنى الهذيان، فإن كينونة تأبى الانحناء: هي ذات إنسانية. وهذه الذات تعلو على أي مناقشة. إذا لم تكن أبدا موضع اعتبار، فذلك لأن التأملات التي كانت الأنا موضوعها في الغرب، ومنها تأملي، قد ارتبطت قبل كل شيء بديمومتها. إن الجميع يرتضون ضمنا بأنها، في اللحظة الراهنة، هي الشيء

من لينغ إلى أ. د

بالشخصية، بالحكمة وليس بالامبراطور. لذا فإن فكرة العالم الذي لن يذهب إلى تخيله، تعبر بالنسبة له عن حقيقة العالم.

إن لكم ردحاً من الدهر تعكفون فيه على إدراك وجودكم. وبعناية، عَنوَنتُم، وصَنّفتُم، وحَدّدتُم الشخصيات التي ظهرت أمامكم، وكذا شخصيتكم. ومسلحين بأحجار الصيد الخفيفة، وبغير عصي، رُحتُم -مع قصر النظر والحماسة- تبحثون عن اختلافكم عن الآخرين. إن هذه العناية التي بدلها فنانو القرن السادس عشر، في تأطير صورهم، وهي شيء أتذوقه، ملمح من ملامح روحكم. وأحيانا وأنا وحدي، أتصفح كتاباً من الكتب التي تقدرونها بعض التقدير، متناسيا مع الشمس التي عَزّ طِلابُها ذلك القلق الذي صار ملازما لي، أجدني أتمتع بتسليات لَطيفة من محاولتكم طِرادَ الفرد. ومن الجهود التي تبذلونها للإمساك فيه بشيء محدد. ذلك لأنكم في محاولتكم العثور على أنفسكم، تفعلون ذلك على طريقة هؤلاء السحرة، الذين يجدون في أعقاب ندائهم على العفريت، أن الغرفة قد احتُلّتْ بأعداد لا تُحصى من الوجوه ذات القرون، فيُغَمى عليهم، ويستيقظون بعد ذلك تحت أكوام الكتب. يعانون من الآلام العظيمة في الرأس. ليس لأن الكتب قد أصابتهم بجروح أثناء سقوطها عليهم. ولكن لتذكرهم بأن العفاريت قد تشاجرت وتضاربت أثناء تزاحمها، لأن كل واحد منها أراد أن يكون هو المعني بالنداء ؛ وهو ما يغري هؤلاء السحرة البارعين بمواجهة الصعاب من جديد.

ونحن قد اجتهدنا على مر التاريخ ألاّ نقع تحت إغواء أو أسر هذا الوهم في أنفسنا. وإني أراك، ياسيدي تفكر في البوذية،

وصحيح أن بعض الغربيين قد تَلَهّوا، في كتب، بالانتقاص من قيمة فكرنا لصالح فكرهم. لكن الذين حاولوا حقا معرفة فكرنا، هؤلاء المزدرين للرموز ليجتهدوا على النحو الذي تفعله، الذين توجهوا إلينا، وفهموا سريعا أن عقلا بشريا يمكنه أن يعمل لغايات متنوعة، وأن اكتشاف العالم أمر مرغوب أكثر من غزو نظامه. قد تباعدت الأواصر شيئا فشيئا بينهم وبين نصائح التلال التوسكانية والحدائق الفرنسية.

لقد تنزهت، أنا أيضا في حدائقكم التي لا تضاهى والتي تختلط فيها التماثيل مع غروب الشمس بظلالها العظيمة الملكية أو الألوهية. إن أيديها المفتوحة تتراءى لك كأنها ترفع قرباناً ثقيلاً من الذكريات والمجد. ولقد رغب قلبكم أن يتميز في وحدة هذه الظلال التي تتمدد بهدوء كشريعة عملت لدهر طويل. آه! أي فرع سيكون جديرا بأصله، ذلك الذي يبحث عن فكره الغابر، لا يعرف بعد سوى أن يبكي موتاه الكفار؟ وعلى الرغم من جبروته الواضح، فإن الغروب الأوربي محزن وفارغ، فارغ كنفس الغازي. ففي كل التصرفات الشديدة المأساوية للبشر، لم يظهر لي من بينها على الإطلاق، ما أشد مأساوية وأشد عبثا من ذلك الذي تساثلون به ظلال أمجادكم. إن جنسا منذورا للقوة، هو جنس يائس...

ما أشد حاجتي إليك، يالذأت الجسد المقهور في الليل المتعب، يافكراً غير بشريّ يتصاعد فوق وهج الحريق الهائل للعالم، و ياآسيا.

أوربا، أُرغمَت على إخضاع الحيوانات للإدانة. لقد كان هذا العُرفُ حسناً، ولنَ أقول كم أنا آسف لإقلاعكم عنه. فقد وجدتُ فيه رمزا، وقدّرتُ فيه ثانيةً، معنى النظام الذي ميزكم بين الأجناس ؛ وقد سَرّى ذلك عني كثيرا.

أنتم تعرفون حكاية الجمجمة، هذه الحكاية عندما يُرينا مؤلفها كيف أن الجمجمة الآدمية مهملة على حافة طريق عبر متابعته للعابر الذي دنسها، فهو لا يفعل سوى ما يفعله قاص غربي. لكنه عندما يعرض لنا، في الضوء الباهر للقمر الثلجي، هذه الكرة التي تتدحرج، وتقفز، وتسقط وترتد، ولا تني تُزعج العابر المرتعب، نشعر بأنه يفترض بأن لهذه الرأس حياة خاصة، متشكلة بشكلها الغريب عن الأشياء الإنسانية. وهنا تبدأ عوالم الخيال.

إن الحياة التي تجسدت في صورنا والتي جعلتك تعتقد أن فننا أحَبّ تصويرَ الفرد. جاءت، على العكس من إهمال الخواص الفردية. إن مبدأ النوع، الذي هو بالنسبة لكم مبدأ تجريدي للغاية، وسيلة للتصنيف الفردية. إن مبدأ النوع، الذي هو بالنسبة لكم مبدأ تجريدي للغاية، وسيلة للتصنيف؛ وطريقة للتعرف. وهذا المبدأ عندنا مرتبط بالحساسية، ففنون آسيا فقط هي التي ابتدعت الكاريكاتير للحيوانات .. وعندما أقارن فننا بفنكم، تدو لي حساسيتكم مبعثرة، وحساسيتنا مُنظّمة تقريباً على النحو الذي تنتظم به أفكاركم. هل لك أن تتصور، وأنتَ المسيحيّ، أن يكون هناك إنسان لديه حساسية منظمة؟

عندما أقول: القط، فإن الذي يهيمن على عقلي في تلك

متاحفكم أيةَ متعة. فالفنانون الكبار مسجونون فيها ؛ وهم يتجادلون معا. وهذا ليس دورَهم، لا دورنا أن نسمع جدالهم. إنني دائما مُحبَط من الأماكن لتي تفضلون فيها إشباع مَلَكةِ الحُكم على المتعة المرهفة الناتجة عن الفهم.

المتحف يعلم، للأسف! ما ينتظره الأجانب من الجمال. إنه يُحرّض على المقارنة، ويُفضي، قبل كل شيء إلى إحساس باختلاف ما يقدمه، مع أيّ عمل جديد. إنه يسيطر على الحساسية التي يعرضها، ولقد حَدَستُ، ببعض المرارة، أن أحدَ أطفالي قد تقودُهُ الصدف إلى معاناة مشاعر مماثلة فيه. فالانفعالات، والمقابلات غير المتوقعة للألوان، والأحلام الجمالية التي حلم بها أسلافي في رسوماتنا تصطحبنا حتى الموت مثل التخيلات التي تعطيها اللعب للأطفال ؛ وهي لاتتميز عنها سوى بالنوعية... فكم من عصور الحكمة أوصتنا بأن نجعل من خيالنا خادماً حاضراً وجديدا دائماً لحساسيتنا! وعلى حين تتنقل التعاسة التي لاتَكلّ للغرب، والمنتصرة انتصار التحف المعروضة، من صالة لأخرى، يَصعَدُ القرينُ الشاب لنهر السين من المجرى سحابات من ضباب الحُور الملونة... وعلى حين أن طبيعة بلادكم، على ما يقال، تدفعكم للتأمل ؛ فإن طبيعة تعطف بأنفسنا نحو التعاسة أو الفرح. إن بعض الخيالات المجهولة فوق الجليد أو الخطوط الحمراء لجسر تستيقظ للحياة فجأة ؛ فتصبح هي الرسائل المتناغمة التي تجيء لتُحدثنا عن أنفسنا. سواءٌ كان واقعياً أو متصوراً، ذلك الذي يوقظ حساسيتنا أ،و يتوافق معها، فإن مشهداً طبيعياً هو إحساسٌ مُتجَلٍ. وهذه الحدائق التي نقدها هي فِخاخ تقريبا. دلائل على مشاعرنا. لها علينا قدرةٌ طاغية،

ساعةً أعرفُ أن لا نظيرَ لها، ساعةً وحدةً لا تعادلها ساعةٌ أخرى! في احتضار الآلهة مجتمعةً وجدتُ عاطفةً لم أتجرأ على طلبها من عزتها، كان الدمُ الذي يسيلُ على أجسادها يدمرها كأنها شُعَلٌ ويُظهرها كأنها أضواءُ هذه الشُعَل... لقد أحببتُ صُوَرَها القتيلةَ بأكثر مما أحببت ذكراها، فموتها قد وصلني بها عاطفياً، والمراهق الذي كنتُهُ أتْمَلَتهُ زمناً طويلاً الرائحةُ الطاغيةُ لدَمِها الأرضيّ.

أنفسنا محاطين بالوحوش الأليفة، علامة الحكمة.

إن استخدام الخواصّ الرمزية هو بالقطع ما يُعيقنا عن فصل الأفكار، بمثل ما فعلتم بهذه الحساسية التشكيلية التي هي لدينا مرتبطة دائما بالأفكار. إن فننا التصويريّ، عندما يكون جميلا، فهو لايُقلّد ولا يَصف: إنه يومىء. إن العصفور المرسوم هو إشارة خاصة للعصفور، مِلكٌ لمن يفهمونها وللرسام وهو كالعلامة المميزة: فالعصفور عندنا هو الرمز العام. وبإدراكي الآن لفنكم، فإن فننا يبدو لي كالغزو المتمهل، والمحدد للحلم والإحساس عبر الرمز.

❖

باريس.

السيد العزيز،

إن الذكاء المنظم على نحوٍ مُحكَم، يهيمن بيسر على التعابير الإنسانية، لأنه يجُبرها على ألاّ تكون سوى حُليّ لنظام القيم الذي أقامه. مجرد زخارف وروائح للفكر... وعلى الدوام تَجهدُ عقلية الغرب في إعطاء الأشياء التي تحصلت عليها من القيم طابعاً مرغوبا. وهذه العقلية بها نزوعٌ لغزوِ الزمن، وجعله أسيرا للبنى الشكلية لكن هذا النزوعَ نفسه ليس سهلاً سوى في عالمٍ تَمّ تنظيه عبرَها. فهي التي تنوج نفسها، وتحكُم بالإعدام على ما لا ينتظم معها.

إن الزمن يُفرِحُها اليوم، وهذا الشعور الجديد الذي نجده في الأفعال وفي المشاهد الطبيعية، هو الضرورةُ الملازمة لها. حيث نجد بنظرتنا السريعة لهذه الأفعال والمشاهد أنها قد أسبغته عليها وبمثل ما تُغَيّر مياهُ البحر العميقة شيئاً فشيئا من ملامحِ سكانها بما يقتضيه المشهد التصويري لمهرجاناتها البيولوجية، فإن حضارتنا، المتلبّسة في فنانينا، جعلتهم لا يستطيعون الإمساكَ بعالمٍ لا يقبل إيقاعها الذي تشكلوا بها، وعندما أتذكّر أحيانا، مناظرَ أشجارِ الليمون حيث تُوجّه الجبالُ طبقاتها المتوازية في

إليها بأعين جديدة. وهناك، في هذا البحث، مهارة حاذقة تتطلع نحو الإنسان بطريقة المندهش، فالأحلام التي تتلبسنا تستدعي أحلاماً جديدة في شكلٍ تجرب به سحرَها: نبات، لوحة أو كتاب، إن المتعة الخاصة التي يجدها البعض في اكتشاف الفنون المجهولة تتوقف عند الاكتشاف، ولا تتحول إلى حب. وعندما يجيء لنا، من الأشكال الأخرى الَتي تؤثر فينا، ما لا نحبه، نصبح كالملوك المرضى يأتي لهم النهار بأجمل هدايا المملكة، ويعيدهم المساء لجشعهم الملازم واليائس...

إن التوعك الأوربي، هو ذلك الذي سببته الكشوف في العقول للأسف! بقليلٍ من البراعة. هل تعرف بغزوة إسبانيا الجديدة؟ لكَم يبدو صوتُ ساهاجون، وهو يَجَشّ في وقارٍ، بين أسطُرِ النصّ الإسباني، عندما يَقُصّ أنه زارَ، عند دخوله المكسيكَ، في قَصر الملك، «الحدائقَ التي لا تشبه في شيء مَا يمكن أن تصنعه يد آدمية، ورأى، في القاعات السفلى، مجموعات من الثعابين والأقزام التعسة...». إن التعاسة التي أربكت الأب اللاتينيّ في أعين أقزام بلاد الهند الغربية قد عرفناها، وقهرتنا في الأعمال الأثرية، وفي الروائع التوسكانية، ثم في هذا اللوفر، حيث اللوحات التي جَمَعَها نابليون، تُربك بترتيبها على أساسٍ تعاقُبيّ فقط، الفنانين الأكثر أصالة من بين أصحابها. ومع ذلك فلم تكن أوربا ولا كان الماضي هو الذي غزا فرنسا مع مطلع هذا القرن، لقد كان العالم بأسره، العالم بكل حاضره وكل ماضيه، وبكل قرابينه المتراكمة في أشكالٍ حية أو ميتة أو تأملات، إن هذا العرض المرتبك الهائل الذي بدأ، هو ياصديقي العزيز، واحدٌ من إغواءات الغرب.

فيها كنبعٍ تحت أرضي، ولكنه يُسبغ عليها هذه الأشكال العظيمة والبسيطة التي تُمكّنها، بعد ذلك، من التسلطُنِ على الأشكال الأخرى، وإخضاعها لتأثيراتها.

وحيث إن هذا العقل الذي يرفضُ الإقرار بحكم القيمة الواقعية، قد قادتهُ قوتهُ الذاتية لأن يعي حاجته إلى تأصيلية سلبية، مستندة بأكملها تقريباً على رُعبٍ واضح من الإغواء. فإن الفن الذي يرغبه، يحصل عليه بالعلاقة شبه الرياضية بين أجزائه، أكثر مما يحصل عليها بالرؤيا في عمل فني. وإن إشباع رغبة ما، لأهون بكثيرٍ من معاناة ثقافة هاجَتْ بلا توقفٍ لكي تُخضعَ القوى المعادية وحياتها نفسها، هي ألدُّ خصومها.

باريس.

السيد العزيز،

إن عالمنا ليس خاضعاً، مثل عالمكم، لقانون الأسباب والنتائج، أو، على وجه الدقة، هذا القانون، الذي نُسلم به، هو بلا فاعلية لدينا ؛ فهو لا يقبل ما هو غير قابل للإثبات. فالحدث غير القابل للتفسير ليس بالنسبة لنا نتيجة لسبب مجهول إلا لأنه ينتج من حياة نجهلها. ومن هنا القيمة التي نعترف بها للحساسية. والتقدير الذي نُكنُّه لها وللمعرفة المتحصّلة لدينا منها والتي تبدو لي متفوقة على نَظيرتها لديكم.

ومع أنني لم أعد مؤمناً بتناسُخِ الأرواح. فإن حساسيتي تتماثل مع الحساسية التي كانت لأبي ؛ وبقدر مافي خزفياتنا من جاذبية، فإني أتذوق منها ماليس به صفة المحدودية، وما ليس واقعا تحت تأثير كل هذه العلاقات الجافة التي تقتلك حكمة لكي تحصل على اليقين بخصوصياتك.

ومن المؤكد، أن الفكرة العجوز لتناسخ الأرواح قد نَمّطَت الحساسية الآسيوية، بمثل ما نمطتْ فكرةُ المسؤولية حساسيةَ الغرب. ولكنكم تفهمون هذه الفكرة على نحوٍ سيّء. لأنكم تترجمونها. فلا أحد منا ومنكم لا يعتقد بأنه كان في الوجود السابق على

لواجدٌ هنا البنيةَ المتفردةَ للتفكير الشرقي، والمتماسكة أيضا تماسكَ أي فلسفة غربية، والتي لا تتجمع خطوطها سوى في اللانهائي، مثلها في ذلك مثل تلك الحدائق بكشميرَ التي تشييدُ مناظيرها على ممراتٍ عظيمة مفتوحة على السماء وعلى جبالِ الثلج البعيدة...

إن المشاهد الطبيعية لبلادكم لا تُشوّشُ أبداً فكرةَ جدارةِ الإنسان، العزيزةَ عليكم. فلا يوجد عرض الطبيعة الذي لا تستطيعون مقارنته بعمل إنساني. فقوة الجبال التي لا تستدعي الأحاسيس بالعظمة الهادئة، لا تعطيكم ما تعطيه الحركات غير المنتظمة لخضرةٍ تميل وتقوم، وتسقط مع اندفاعة مندفعةٌ بسرعةٍ هائلةٍ نحو البحر، من إحساسٍ بوجود قوة أعظم من قوى الإنسان. و أتحدث عن قوةٍ إلهية. بل على النقيض فالخاصية اللابشرية. غير المفهومة، نَبْتٌ لهذه القوة التي تأسرنا عندما نعيها .

بين العقل الشرقي والعقل الغربي اجتهادُ للتفكير، إني أومن أولاً بإدراك اختلافٍ في الاتجاه، أقول تقريباً في المسار. فالعقل الغربي يسعى لرسمِ خريطةٍ للكون، بإعطائه صورةً سهلةَ الإدراك، بمعنى أنه يُقيمُ بين الأشياء المجهولة والأشياء المعروفة سلسلةً من العلاقات الحساسة بغرض فهم الأمور التي لازالت غامضةً للآن. وهو يرغبُ في إخضاع العالم، ويجد في فعله هذا قدراً أكبر من الاعتداد الذي يعتقد فيه لنفسه. وعالمه أسطورة متلاحمة. أما العقل الشرقي، فهو على النقيض، لا يسمح بإعطاء قيمة للإنسان في نفسه، ويتفنن في أن يجد في خلجات العالمِ الأفكارِ التي تسمح له بقطعِ الروابط الإنسانية. فالأول يرغَبُ في

ملكتم معرفةً للعالم بمظاهره وحيواته العديدة والمتميزة، بيد أنكم لم تجنوا سوى مرضِ فكركم الذي يحملكم على مثل هذا الإدراك. لقد ميزتُم في الإنسان بعضَ الأحاسيس، وأسبابها المشتركة على نحوٍ عام ؛ ولكنكم تعتقدون أنه يوجد فيما مضى إنسان، شيء من الديمومة غير متحقق. وحالكم في هذا شبيه بحال الحكماء الشديدي الجدية الذين يلاحظون بدقة حركات الأسماك، ولكنهم لا يكتشفون أن هذه الأسماك تعيش في الماء.

بإزاء عالم مبعثر، فإن حاجتنا الأولى للعقل هي من أجل التمكن منه. ونحن لا نستطيع أن نمارس هذا على صوره، بما أننا حسّاسون أولاً لكونها عابرة، إننا نريد أن نفعل ذلك على إيقاعاته. ومعرفة العالم ليست في إقامة نظام، كما أن معرفة الحب لاتقوم على التحليل. بل في الحصول على وعيٍ حادّ به. ففكرنا (عندما لا يكون في خدمة المعارك الدوجمائية) لايتمثل كفكركم في كونه محصِّلة للمعرفة. ولكنه يتمثل في عملية التجهيز والتحضير لهذه المعرفة فأنتم تحللون ما جربتموه، ونحن نفكر لكي نجرب.

وبالنسبة لمفكر الشرق الأقصى، فإن معرفة واحدة هي الجديرة بالاكتساب، وهي معرفة الكون، وهو يجتهد ليخلق في نفسه، بحسب القواعد المعمول بها، حالات فكر وحساسية تستمر في التجذّر عميقاً على نحوٍ تبادلي ؛ لتنحو نحو أصلها. في توجهٍ خاص تُفضي إلى إعطاء نظرات العقل المُفْتَرَضَة، خاصيةً لليقين.

إن العالم هو النتيجة للتضاد بين إيقاعين يتخللان كل الموجودات. وتوازن هذين الإيقاعين المطلق هو العدم ؛ وكل خلقٍ

من أ. د إلى لينغ

فهم يطلقون تسمية المطلق على النقطة القصوى لحساسيته. ومن واقع برهان فلاسفتكم: فإن حالات شدة الوجد المتماثلة، بما أنها جميعاً تبدأ من حيث ينتهي العالم، تبدو لي باطلة، كما أن النتائج المترتبة عليها باطلة أيضاً. فليس هناك تماثل سوى بين الأشياء المحددة ؛ أما غير المحدد فلا يتماثل أبداً مع نفسه، وإنما هو خارج عالم المتماثلات. فالأمر لايتطلب هنا سوى فقد الوعي بطريقة ما. يقولون لي «إن ذلك هو العثور على الوعي نفسه، بوصل النفس بالعالم» وقد رغبتُ في أن أرد «بأن وعياً ما، هو بالضرورة فكرة...» أما أجمل رؤى الموت فليست سوى حَلٍّ للضعف...

إن ما يشغلني -في كل هذا- الأهمية المعطاة في هذه الحركات لكون الحساسية لاتَدينُ إلا لنفسها ضمن تجاركم، وبين ظهرانينا، نحن الغربيين، أرى من البشر مَن توصّلوا لتحديدات للحياة ؛ وأشكّ في أن نكون جميعاً مدينين لهم. إن لي على وجه التقريب عامين أراقب فيهما الصين، وما تغير في نفسي أولا هو الفكرة الغربية عن الإنسان. فلم يعد بمقدوري أن أستوعب أن الإنسان مستقل عن طاقاته الكامنة. ويكفي أن نقرأ معالجة نفسية لنشعركم أن أفكارنا العامة والأكثر ذيوعا يبدو زيفها عندما نستخدمها لفهم أفعالنا. فقيمتها تتلاشى بقدر ما يتقدم بحثنا، ودائما نصطدم باللامفهوم، بالعبث، أي بالنقطة القصوى لما هو خاص.

ألا يكون مفتاح هذا البعث في الطاقة الكامنة المختلفة دائماً والتي تُرادِفُ الحياة؟ لقد تأثرت هذه الطاقة بحياتنا الإرادية،

من لينغ إلى أ. د

تستطيعون أن تعهدوا إليه بإرثه الغريب. ومحاولاتكم المتواضعة لبناء عدميات معتدلة لايبدو لي أنها ستُعَمّر طويلاً...

أيّ وعيٍ يمكنكم الحصول عليه بهذا الكون مما تسمونه الواقع؟ إن هذا هو الخلاف. فالوعي الشامل بالعالم يتلخّصُ في: مُت، وسوف تفهم كل شيء. لكن الوعي الذي لديكم وعيٌ منظّم، وبالنتيجة، فهو عقلٌ دعامة فقيرة، وخيالٌ في ماء راكد... إن تاريخ الحَياة النفسية للأوربيين، بأوربا الجديدة هو تاريخ غزو العقل بواسطة الأحاسيس التي تنشر فوضَى حدّتها المتساوية لذا فرؤية كل هؤلاء البشر الساعين لتمكين الإنسان بما يسمح لهم بقهر الفكر وبالعيش، بينما العالم الذي يتسلطن عليه هذا الإنسان يصبح، يوماً عن يومٍ، أكثَر اغتراباً، هي بالقطع آخر الرؤى التي سأحملها معي للغرب.

❖

شنغهاي.

صديقي العزيز،

لقد رأيتُ وانج لو. منذ زمن طويل وهو يشغل فكري. فالحالة التى كان عليها في عنفوانه. وتعاليمه السرية،والاحترام الذي يحيط به. يعطون الانطباع بحياةٍ حافلة، عميقة وجميلة. ولكن لمعرفتي بحقده على البيض لم أسعَ لقائه كان هو قد رغب في الحديث معي ؛ وكنت سعيدا بذلك.

كان يقطن بفندق أستور. وقد استقبلني في حجرة واسعة انجليزية الطراز، وهو عجوز طويل القامة. حليق الشعر واللحية. أسنانه طويلة، وفَكُهُ واضح، كان من الهُزال بحيث أن عينيه المختفيتين، خلف العوينات التي تحميها، بدتا كبيرتين سوداوين يفصلها أنفه القصير. رأس ميت، وعوينات صَدَفيّة، وجَلاءٌ عظيم.

بادرني هو بالسؤال. كان ينتظر مني بعض الإيضاحات التي تُشفي أحقادَه حول أوربا ؛ وعندما عرج الحديث بنا إلى الصين، قال لي: «لايهمّ هؤلاء المتوحشين المسلحين بالسيوف، ولا هؤلاء الملايين من العامة الذين صار هاجسم الخوف من الطعن، بل لا يهم حتى هؤلاء الحمقى المسممين بالبلاهات الجامعية، إن حالة صفوة

«إن بداية الخراب تُحدّد طابعَ هذا الذي مازال بعد في بدايته. ما الذي سعوا وراءه خلال ألفين وخمسمائة من السنين ؛ تَمَثُّلٌ مُحكَم لعالم بواسطة الإنسان ؛ وبما أن حياتهم كانت عمليةَ أسرٍ مُتمهِّل للعالم، فقد أرادوا أن يكونوا هم الوعي المتفتت... فالكمال الذي ينشدونه، توافق مع القوى التي وعوا بها، وكذلك...»

ولم أفهم ما أعقبَ ذلك من كلمات فقلت له... «إن هذا الذي يتعارض مع ما تسميه الذاتية ؛ أي خاصيّة التفكيك ؛ أو على الأرجح، رفض كل بناء للعقل. هذا الذي يكتسب تجدده عبر رغبة إعطاء كل شيء قيمته العليا من خلال الوعي الذي تحصّلَ عليه البعضُ... فكر كهذا يحمل في ذاته أسبابَ مرضه التي تتلخّصُ في ازدراء القوة. والصين، التي كانت فيما مضى زائدةً غليظة، تبحثُ اليوم عن القوة، وتحمل إليها ذكاء كل شبابها، كقربانٍ لآلهةٍ شريرة.

«إن العالم لن يعثر أبدا على الأعمال الفنية التي صاغتها، فيما مضى، حساسيتُنا. إنها التعبير عن أرستقراطية الثقافة وعن البحث عن الحكمة والجمال، اللذين هما وجهي العبقرية المحتجبة... أنظر الآن إلى حطامها المحزن وهو يتجرجر على الأرض مع لافتات الدعاية، لنادي أنغو عن أحطّ الاجتماعات السياسية...

«إن الجديرين بماضي الصين بيننا قد اختلفوا واحدا وراء الآخر، ولا أحد يفهم بعد، ومأساتنا ليست في وجود هؤلاء المهرجين الدمويين الذين يحكمونها، وليست كذلك في أبراج الموت

وهي تعلمهم بوجود لإيقاعات، وتأخذ بيدهم للبحث عن الإيقاعات الكونية في خطوط الفضائل بكتاب تاوتي كنج(*)، تساعد على فك أواصر ارتباطهم بثقافة تستمد قوتها من أنها أضافت إلى خلائق الإنسانية الثابتة إمكانية الرغبة... فلم تزرع فيهم بالضرورة سوى شراسة متعة الهدم. لقد استثيروا بحياة وبفكر أوروبيين ليس فيهما مَا يعرِّضانه سوى سخفهما البالغ: اخترعْ، راكمْ النقودَ أو وَحِّدْ الأراضي، قُمْ بالأبحاث النفسية عديمة الجدوى أو قُمْ بعمل الاستعارات لتفسير العالم. كل هذا عبث. بالقطع عبث. إننا لا نستطيع الاهتمام بأنفسنا، هل تفهم؟ هل تستطيع فهم هذا، أيها الأوربي؟ فهذه العروض التي تدور الآن فينا أو أمامنا، ما الذي بمقدوره أن تجلبه لنا سوى الاسمئزاز والبؤس؟...»

وتوقفتْ ابتسامته، ومال بجسده ناحيتي، كانت يداه المفرودتان على المائدة ترتجفان بعض الشيء، وتملكت صوته الهادىء نبرة متحسرة. ولكنه عاود الحديث. وعادت البسمة تكدر ملامح وجهه. بينما كان يصحبني:

«تاريخ عيدنا القومي، كنت أرجو ألا يكون هو المناسبة السنوية لذكرى ثورة أطفالنا المرضى بفكركم، ولكن لذكرى ذلك المساء الذي فرّ فيه الجنودُ الأذكياءُ بالجيوش المتحدة، وهم يحملون باحتراس الألعابَ الميكانيكية النفيسة التي صنعتها عشرة قرون قرباناً لامبراطورية، في الوقت الذي حطموا فيه اللآلىء وجففوا أحذيتهم بمعاطف بلاط الملوك دافعي الجزية...»

(*) تاوتي كنج: كتاب «الطريق والفضيلة» للارتسي

من لينغ إلى أ. د

وبما أن ما تمكننا من أخذه من الغرب هو الأشكال، فالسينما توغراف، وضوء الكهرباء، والمرايا، والفونوغراف، قد جذبتنا كما لو أننا نوع جديد من الحيوانات الأليفة. فبالنسبة لسكان المدن، لا تعني أوربا أكثر من جنّيٍّ ميكانيكيّ.

لم تعد هناك صينٌ، هناك نُخَب صينية، ولم تعد النخبة العارفة مقّدرة إلا بوصفها شيئاً أثريا أما النخبة الجديدة، نخبة هؤلاء البشر الذين استوعبوا الثقافة الغربية فهي مختلفة عن الأولى بشكلٍ يُجبرنا على التفكير بأن الغزو الحقيقيّ للامبراطورية بواسطة أوربا قد بدأ.. فلم تعد الهزائم بعد، بل الانتصارات الصينية، هي التي تؤثر بدمار ماضينا. وهذا الدمار لايمكن تداركه، بما أن أرستقراطية عقلية جديدة - هي الوحيدة التي لم نقبل بها أبدا في الماضي -تتكون الآن: فطلاب الجامعات لهم اليوم نفس المكانة التي كانت للعارفين فيما مضى فهم محاطون بالاحترام الصامت الذي كان لهؤلاء من قبلُ إن وجود هذه النخبة الجديدة، والقيمة المعترف لها بها شاهدان على تَغَيُّر في الثقافة الصينية يعد لتحول شامل. لقد كانت خيارات حضارتنا فيما مضى تنصبُّ على الشيخوخة، فعبر الشيخوخة ولها قامتْ هذه الحضارة: كان المتقدمون للامتحانات الهامة يبلغون سن الأربعين ؛ أما اليوم، فهم يبلغون بالكاد سن الخامسة والعشرين. لقد بدأت الصين تحترمُ قيمة شبابها، أو على وجه الدقة قوته. وبما أن حيوات البشر جميعاً تنعطف اليوم بواسطة الشباب يجب الأخذ سريعاً بيد حضارتنا لتلحَقَ بالركب، فعندما تنكسر مقدمات الجونكاتَ المنحوتة، يتم توجيهها بواسطة البحارة الشباب. إن روح الصين التي ولِدَتْ لابدّ بالقطع من البحث عنها في أجزاء هذه المركبة

التي تصلني من الصين. فشبابنا يعرفون أن الثقافة الأوربية ضروريةٌ لهم ؛ ولكنهم أيضا مُتشرّبون بثقافتهم الخاصة بالقدر الكافي لجعلهم يحتقرون الثقافة الأوربية. ،وهم قد اعتقدوا أن بإمكانهم بسهولة أن يتحصلوا عليها ويظلوا صينيين، فحضارة لا تهتم بالأحاسيس، ولا تدركها، يمكن في اعتقادهم، معرفتها بغير خطر يعدو خطر معرفة لغة أجنبية... وقد يكون لأرواحهم المعذبة التي تبدو اليوم تحت سيطرة الحقد والكراهية والتي تواصل النظر بإكبارٍ لجنسها، أن تتصل يوما الى الاتحاد مع فكر عظيم أو حَدَث صينيٍ عظيم... فمن قُدّرَ عليه منهم أن يَفرّ إلى الغرب قُضيٌ عليه أن يكتفي بفراقهم أما هذه الأحاسيس الأوربية، الشجاعة العسكرية، وحالة ديناميكية الشباب الكانتوني، وحب النساء والحزن الذي لبشعرنا الحديث. فهي تعبير عن طاقة وحب فارغين...

كيف يمكن التعبير عن حالة نفسٍ تتفتت؟ إن كل الرسائل التي أتسَلّمها تأتيني من شبابٍ همّ أيضاً منبوذون مثل وانج -لو أو مثلي، مسلوخون من ثقافتهم وضَجرون من ثقافتكم... لقد تولّدَ فيهم الفرد، وتولد معه فيهم ذلك الميل الغريب للتدمير والفوضوية، الخالي من العاطفة، الذي يشبه حالة التبديد القصوى الناتجة عن الريبة إذا لم تكن ضرورة الهرب قد تسلطنت في كل هذه القلوب الأسيرة، وإذا لم يكن شحوب الحرائق الهائلة قد لمع في أعينهم. آه، كم هو عسير عليكم الإتيان إلينا بروحٍ آسيوية. فموكب أوربا الطويل. يحفه حمالون بيض، ومركبات محملة بكل معية الموت! إن مجوس الإنجيل، سفراء لدى أباطرة مونغرليا، فأي بؤس تحمله قوافلكم! «لقد جئت إليكِ ياماليكتي بكل ما تشتهيه

من أ. د إلى لينغ

من عددهم وقوتهم؟ وبكثير أو قليل من الوضوح، فإن فكرة استحالة القبض على زمام واقع أياً كان تُهيمن على أوربا. إن القوة الظاهرة حتى في ضعفها، للبابا أو الملك، صارت اليوم لغواً ؛ ولم يعد لها هيمنةٌ كافية لكي يتشكل الوعي عبرها من هنا يجيء تَغَيُّرٌ عميقٌ للإنسان. يكتسب أهميته من تكسير العَوائق التي لألف من السنين سَيَّجَت وحَصَّنَت العالَم بالحياة الظاهرية، بأكثر مما يكتسب هذه الأهمية عبر الصرخات. فأن تكون هناك متعة، ياصديقي، لنفس جادة، في تجريب واقع فوضوي، فهي متعة مُسَخَّرَة من الحَميَّة، ومسخرة في الفكر الذي غالبا ما يستمد وعيه من عقدة نقص!

إن الواقع الذي يشهد السقوطَ مُتحدٌ مع الأساطير، ويفضل هؤلاء الذين ولدوا من العقل. فماذا تستدعي رؤيا القوى غير الخاضعة للسيطرة، والتي تُجبر بهدوء وجهَ الحتمية العجوز، في حضارتنا ذات الإيمان الرائع وربما القاتل، والتي يتحلل فيها كل إغواء إلى وعي؟

إن في قلب العالم الغربي صراعاً بلا أمل، يتوارى تحت بعض الأشكال التي تكشفه لنا: صراعاً بين الإنسان وما خلقه، صراعاً بين المفكر وفكره، الأوربي وحضارته أو واقعه، صراعَ وعينا غير المكترث وتعبيره في العالم الجمعي عبر وسائل هذا العالم، هذا الصراع أجده خلف كل رجفة من رجفات العالم الحديث ويغرق لبه الوقائعَ، ويُغرق نفسه، لينبىء بالاضمحلال في الوعي، ويجهزنا بممالك السخف المعدنية.

إن تطور الذات استهدف الغزو بالقوة ولم يستند إلى إجماع،

يريهم تظاهرات عالم متحلل، فأي إحساس أو أي فعل أو أي فكر يُجبره على الخضوع، كحيوان مُقلَّد، يقوم بتقليد صور لا يعرفها ويُظهرها كما هي. بما أن الفكر، الذي يشبُّثُهُ، يُطبِّق على العالم بأكثر مما تُطبِّق عليه العاطفة ولعلّ قاتل الحياة لأسباب أخرى أكثر غموضا من تلك التي تجهلها اليد الغليظة للقانون، يمكن العثور عليه يوماً مُتلبِّساً بجريمته، أو بالعالم الجديد الذي يرتب له والوجوه الشاذة تكشف عن نفسها في آمرة الحروب. فهل نحن أنفسنا الذين نتغير أم العالم هو الذي يتغير عندما تنحسر العاطفة، انحسارَ البحرِ، عن الفعل العاطفي الذي تَعارَضنا معه؟

إن فكرنا ينسلخ بأكثر مما يحدث لدى هؤلاء الشباب الصينيين الذين حدثني عنهم وانج -لو... وبضيقٍ هادىء، نعي التناقض بين أفعالنا وحياتنا الباطنة. وهذه الحدة في التناقض لا يمكن تعزيتها إلى العقل ؛ إنه يعي بها ويظل يطحن الخواء، آلة جميلة تطحنها بعض قطرات الدم... بما أن هذه الحياة الباطنة هي أيضا البدائية الأولى: والقيمة التي يظهرها استبداد العقل لن تُنجينا منها فهو يقول لها: «إنك في الكذب، ووسيلة للكذب،يامختلقةَ الحقائق...» وترد عليه هي: «نعم، ولكن على طول الزمان، مع انتهاء النهار، اعتقد البشر أنهم يرون الغنَى في الظلال وما لديك أنت ليس سوى الانعكاسات الأخيرة لهذا النهار الذي اختفى».

من أجل تدمير الله، وبعد تدميره أباد العقل الأوربي كل ما باستطاعته معارضة الإنسان: وببلوغه نهاية سعيه، صار مثل رانسي أمام جسد عشيقته، لا يجد سوى الموت، ومع صورتها

ومع ذلك، أعلم أني لن أحبك أبدا. وبغير أن أنحني، سأحمل لك السلامَ قرباناً كل يوم. أيها الصحو المتلهف. إني أحترق ثانيةً أمامك، شعلةً فريدة ومنتصبة. في هذه الليلة المثقلة التي يصرخ فيها الريحُ الأصفر، كما في كل الليالي الغريبة التي يردد فيها ريحُ اليَمّ من حولي، الصيحاتِ المتشامخةَ للبحرِ العقيم.

❖

رقم الايداع ٣٩٩٥ / ٩٥
الترقيم الدولي I S B N 977- 5406- 56- 0